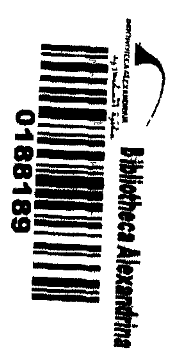
مقدمة

فلسطين

أرض الرسالات الإلهية

بقلم

دكتور عبد الصبور شاهين



دار التراث

فلسطين

أرض الرسالات الإلهية

هذه ترجمة كتاب

PALESTINE

Terre des messages divins

تأليف المفكر العالمى المسلم

رجـــاء جـارودى

ترجمه، وعلق عليه وقدمه وصنع فهارسه

دكتور / عبد الصبور شاهين

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

رجاء جارودي

فلسطين

أرض الرسالات الإلهية

ترجمة وتعليق وتقديم
دكتور عبد الصبور شاهين

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة المترجـــم

دكتور عبد الصبور شاهين

لم أقرأ هذا الكتاب باعتباره عملا رائعاً من أعمال المفكر الفرنسى المسلم رجاء جارودى، وإن كان كذلك، بل ما أظن أن أحد كتبه السابقة يفوق فى الروعة هذا الكتاب.

ولكنى قرأته باعتباره صرخة مدوية فى سكون ليل بهيم... انفجاراً هائلا فى قرية ساكنة نائمة... صخرة ضخمة ألقيت فى بركة راكدة آسنة.

ذلكم هو شأن هذا الكتاب: (**فلسطين: أرض الرسالات الإلهية**)– الذى ينشر باللغات الثلاث: الفرنسية والعربية والإنجليزية، فى وقت واحد تقريباً.

فلعل سكان القرية النائمين أن يُذْعَرُوا، ويَهُبّوا من رقادهم المريض، يشعلون النيران ليتبينوا موقع الانفجار، ومركز الزلزال، فإذا لم يدركوا منه هذا المعنى فلا أقل من أن تضربهم الدوامات التى أحدثتها الصخرة، فتهيج حواسَّهم روائح العفونة فى المستنقع الآسن من حولهم، ولعلهم يستيقظون.

لست أبالغ فى تصوير ما سوف يحدثه نشر هذا الكتاب فى عالمنا العربى الذى أحال فلسطين إلى قضية يدور حولها، ولا يخوضها، أو لا يبالى بها، حتى أصبحت مواقف هذا العالم فيها لا تخرج عن مجموعة من التعبيرات المسكوكة التى يتداولها الناس، مثل:

أنا، وبعدىَ الطوفان!! (أنانية)
شىءٌ أحسنُ من لا شىء!! (انتهازية)
أنجُ سعدُ، فقد هلك سُعَيْد!!(جبن وهروب)
جَعْجَعَةٌ ولا طِحْن!! (متاجرة)

وربما كان فى قاموس العربية وعامياتها ما يعبر عن هذا الموقف العربى المهلهل بصورة أدق ، ولكنّ كلاً من هذه التعبيرات يصدق على جانب عربى أو آخر ، لا يفلت منها سوى القليل ، وأولهم ذلك الشعب الفلسطينى الصامد ، الذى يتحمل بالنيابة عن العرب كل ضروب العسف والهوان ، وهو يجد وطنه يختفى كأنه قمر يتوارى فى لحظة خسوف .

ولا ريب أن لكل بلد عربى مشكلاته الخاصة التى تطفو على السطح ، وتتقدم على فلسطين فى قائمة اهتماماته ، ولكن النظرة الفاحصة تكشف عن أن جميع ما تواجهه الأوطان العربية من مشكلات ناشىء عن مشكَلة فلسطين أساساً ، فالتشاغل بالقضايا المحلية عنها هو فى أدنى حالاته سذاجة وغفلة ، وهو فى أعدل حالاته تآمر وخيانة ، ولا شيء فوق هذا سوى الانتحار المادى ، بعد الانتحار الخيانى الأخلاقى .

لقد نجح الاستعمار وإسرائيل حقا فى إحداث مجموعة من الأعمال السياسية أغرقت بها الأمة العربية فى مستنقع موحل ، فأُشعِلت الحرب بين العراق وإيران ، وشُغِلَت سورية بلبنان ، وعُزِلت مصر عن باقى العرب ، وأُغرِيَتْ ليبيا بمعاداة جيرانها (مصر ، وتونس ، وتشاد ، وربما السودان) ، وانفجر فى جنب السودان دُمَّلُ الجنوب على أيدى المبشرين وعملائهم ، وعادتْ سورية وليبيا العراقَ ، وحالفتا إيران ، وفُتِحَتْ للمغرب والجزائر جبهة البوليساريو ، وزُرِعَ التناقضُ العقائدى بين اليمنين ، وتفجرت مشكلة انهيار أسعار البترول للقضاء على أهميته الاقتصادية والسياسية فى دول الخليج ، وأكلت المجاعة أطرافا من الصومال وجيبوتى وموريتانيا ....

فماذا بقى من هذا العالم العربى ليكون شيئا مذكوراً ؟!

ومن عجبٍ يبقى شيء اسمه : الجامعة العربية !!

★ ★ ★ ★ ★

لقد قيل مرة فى تبرير الصفقة السياسية التى أخرجت مصر من القضية : إن السبب كان تقاعس بعض الدول البترولية عن إمدادها بما تحتاجه لمعالجة آثار الحرب المدمرة لاقتصادها، فكانت هذه الصفقة بين مصر من جانب، وأمريكا وإسرائيل من جانب آخر - ردا على هذا الموقف المتخاذل؟! وسواء صح هذا أم لم يصح (تبعا لمعلومات أخرى) فإن هذه الدول قد نزفت دم قلبها، وأفرغت خزائنها وأرصدتها على الحرب التخريبية بين العراق وإيران، والتى تدور رحاها منذ ست سنوات، ومن أعجب حلقاتها اعتماد إيران المسلمة على إسرائيل فى توريد صفقات أسلحة تحتاجها لقتل المسلمين من جيرانها، وهو موقف من التناقض بين الشعارات المعلنة والسلوك الميكافيلى، الذى لا يمكن أن يمر دون أن يلوث الجمهورية الإسلامية بالكثير.

صدقونى، إن الإنسان المسلم لم يفهم حتى الآن معنى لهذه الحرب، التى كان من أبرز نتائجها تثبيت الوجود الإسرائيلى، وزلزلة الوجود العربى.

فإذا تبين أن العرب لم يعد يجمعهم شعور قومى كان بعض زعمائهم يراه أملا ورابطة، وحلا ناجحا لمشكلاتهم - فإن من الضرورى البحث عن صيغة أخرى تجمع عرب الشتات المعاصر، ولن تكون هذه الصيغة سوى الإسلام، أى محاولة طرح قضية فلسطين على مستوى العالم الإسلامى، وهو ما يقترحه الأستاذ جارودى فى ثنايا الكتاب.

ويتوازى هذا الاقتراح مع توجيه آخر إلى المقاومة الفلسطينية خارج الوطن أن تعمل على تنوير الرأى العام الأوربى والأمريكى فيما يتعلق بخطر الصهيونية على مصير القارتين، وما ارتكبته من مظالم وتجاوزات، وما صاغته من أكاذيب وافتراءات، وما نسجته من فضائح ومؤامرات، ولو استطاعت المقاومة فى مجال الإعلام أن تغير موقف الأمريكيين - مثلا - ولو بنسبة ضئيلة فإن تأثير ذلك سوف يكون هائلا على الموقف الصهيونى، إذ تضطر إسرائيل إلى الرضوخ لمنطق الحق والعدل، وهو توجه ذو فعالية أكثر من المعارك الحربية.

إن الخروج من دائرة القبلية الكامنة وراء الفكر القومى أصبح ضرورة حيوية لتطوير الحياة العربية من خلال عقيدة سماوية، وفكر سام.

وإذا كان هذا التصور يلقى معارضة من أنظمة حاكمة فإنه الحل الأمثل فى اعتقاد الجماهير للخروج من الأزمة الراهنة، إذ إنه يضيف إلى الثقل الاستراتيجى للقضية مئات الملايين من المسلمين، ذوى العقيدة الصافية، والإيمان الإيجابى، ولا سيما إذا تحركوا من أجل إنقاذ المسجد الأقصى، مسرى الرسول ﷺ ومعراجه.

نعم، إن الاستعمار والصهيونية لن يتركانا نتحرك بالإسلام، لاسيما ونحن نعيش تحت وطأة الديون الثقيلة، وفوائدها الربوية الجهنمية، ولكن الصراع بين الواقع والأمل، بين اليوم والغد، بين الحقيقة والحلم - هو الذى يكتب تاريخ الأمم، ويؤلف ملاحمها، فليكن سعينا إلى الإسلام كفاحا من أجل الانتصار على الواقع الصعب بالأمل المتجدد، وتجاوزا لمشكلات اليوم بوعود الغد وأحلامه الكبار.

وتلكم هى معركة الإسلام المعاصر فى رأى الأستاذ جارودى، فهو ينتقد طرح مشكلة فلسطين من منظور قومى، خضوعا لتأثير الأفكار الناصرية، والبعثية عن القومية، وهى أفكار غريبة عن الإلهام الإسلامى للأمة (بمعنى المجتمع الدينى المفتوح).

ولسوف يلاحظ القارىء أن للكتاب موقفا محدداً فى التفرقة بين مفهوم (القومية)، ذى الطابع العنصرى، ومفهوم (الأمة) ذى الطابع الدينى.

بيد أن للكتاب غاية سامية يمضى إليها عبر مجموعة من التصورات المنهجية، فهو لم يقتصر على تعرية جميع أطراف القضية الفلسطينية، ولكنه سبر أغوارها، واستوعب أصولها تاريخيا وسياسيا، ثم وقف فى النهاية إلى جانب فلسطين الإسلام، وفلسطين الأمة التى تقاوم دون استسلام، وقدم فى هذا الصدد ذوب روحه، وخلاصة فكره وإيمانه، ورحيق شاعريته، ومن بين ماقدم لوحة نادرة رسمها لقبة الصخرة، لم يكتبها إنسان من قبل بهذه الشفافية.

إسرائيل والمســـــتقبل

إن القضية الأساسية التى يتعرض لها هذا الكتاب هى **قضية المواجهة** بين الصهيونية السياسية التى امتطت حصان اليهودية، وبين الإسلام **ممثلا فى**: (**فلسطين: أرض الرسالات الإلهية**).

وعلى الرغم من أن المؤلف لم يشأ أن يصرح بشكل حاد بحقيقة هذه المواجهة فإن قارىء الكتاب سوف يلمسها وهو يسير مع فصوله، ولا سيما فى جزءيه الثانى والثالث، ذلك أن فلسطين ليست إلا رمزاً للعقيدة التى ارتضاها الله للعالمين (الإسلام)، وهذا الإسلام هو الهدف الرئيس الذى عملت الصهيونية المسيحية، وتعمل الصهيونية اليهودية معها على تخريبه ومحوه من الوجود – لو كان ذلك بوسعهما.

ومن الخطأ – فى رأينا – أن يتصور أحد أن الشعب الفلسطينى هو المستهدف وحده من هذه الغارة الاستيطانية على فلسطين، لأن فلسطين لا تمثل فى الواقع سوى موطىء قدم للزحف القادم على ما حولها من بلاد الإسلام، على امتداد الهلال الخصيب، من الفرات إلى النيل، وهو ما سوف يؤكده الكتاب حين يتحدث عن مخطط الصهيونية الإسرائيلية فى التوسع بلا نهاية.

ولسوف يخرج القارىء بفكرة أساسية عن ميثاق هذا المخطط، حين يتابع مراحل تنفيذ بعض فصوله، عبر السنين السود التى عشناها من عام ١٩٤٨ حتى الآن ١٩٨٦م، فقد أثبت الزعماء الصهاينة التزاما دقيقا بكل بنود الميثاق، ما بدا منها ممكنا، وأما ما بدا منها بعيداً عن الخيال فى مرحلة من المراحل فإنه قد يقترب منه فى مرحلة أخرى، وحينئذ تبادر القيادة الإسرائيلية إلى تنفيذه دون أدنى تردد، أى: إن تنفيذ الميثاق التوسعى يمضى فى مساره قدما، وكأنه قانون رياضى صارم، تماما كما تمضى الظواهر الطبيعية، لكل ظاهرة إبّانها، وكأن المهيمن على خطوط هذا المسار هو فحوى ما جاء فى النص القرآنى: «ولكل أمة، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة، ولا يستقدمون» [يونس/ ٤٩].

ولسوف يرى القارىء أيضا أن كل ما وقع من أحداث الغزو الصهيونى لفلسطين وما حولها كان من عناصر الحلم الكبير الذى راود خيال مؤسس الحركة الصهيونية، تيودور هرتزل خلال التسعينيات من القرن الماضى (التاسع عشر)، ومازالت بقية عناصر الحلم تنتظر أن توضع موضع التنفيذ، ولا سيما مشروع قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الميت، لتوليد الطاقة الكهربية من مساقطه، وإغراق شرقى الأردن، وربما كان من عناصره أيضا شق قناة بين البحر الأبيض وميناء إيلات، تنافس قناة السويس، وتنهى أهميتها، تمهيداً لتخريب اقتصاد مصر، والإجهاز عليها، واقتطاع أجزاء لازمة من جسدها لترقيع الكيان الصهيونى، وليست سيناء إلا جزءاً من حلم هرتزل الكبير.

أما لبنان وسورية والأردن والعراق فأمرها أهون بكثير، وفى جعبة الصهيونية ومن يساندها من القوى الغربية العديد من المشروعات التقسيمية لإعادة توزيع المنطقة سياسيا وطائفيا، وإيجاد كيانات يحكمها ملوك طوائف، تمكن إسرائيل من التهام ما تريد من جسد الوطن العربى.

وأما الجزيرة العربية فليست بعيدة عن متناول هذا الأخطبوط، فإن بينها وبين الدولة الإسرائيلية حدوداً مشتركة فى البحر، وهىَ فى الوقت ذاته مدخل إلى الخليج الذى تتقاسمه أيضا دويلات، ولكن الأمر يحتاج إلى ترتيب على مراحل متقاربة أو متباعدة.

باختصار، إن التخطيط يمضى إلى أوضاع يعجز تصور القادة فى العالم العربى والإسلامى الآن عن استيعابها، وهم غارقون فى بحار التآمر والدم، عاجزون عن حل مشكلاتهم اليومية والجزئية، كما أن بعضهم لا يثبت فى موقعه من السلطة إلا بقدر ما يقدم للعدو من خدمات، وما يرتكب فى حق الإسلام وفلسطين من خيانات.

وحسبنا هنا أن ننقل نص المخطط الصهيونى الذى يمكن أن نطلق عليه: (بروتوكول صهيون الجديد)، وهو عبارة عن مقالة نشرت فى مجلة كيفونيم — حديثا — تتضمن خطوطا تنبئية عن سياسة إسرائيل التوسعية فى عالمنا العربى، وعن استراتيجيتها خلال التسعينيات من هذا القرن العشرين، وقد قدمت المقالة ابتداء الخطوط العريضة للحرب الباردة بين القوتين العظميين فى فقرة موجزة، وإن كانت معبرة، قالت:

«إن أحد الأهداف الرئيسة للاتحاد السوفيتى هو أن يلحق الهزيمة بالغرب، وذلك بأن يملك التحكم فى الموارد الهائلة للخليج الفارسى وجنوب إفريقية، حيث تركزت أغلبية الموارد المنجمية العالمية، ونستطيع تصور أبعاد هذه المواجهة على مستوى البسيطة وهى المواجهة التى سوف نعيشها فى المستقبل.

إن نظرية جورشكوف تطالب برقابة سوفيتية على المحيطات، وعلى المناطق الغنية بالمواد المنجمية فى العالم الثالث، ومن الممكن تبعا للمفاهيم الحالية للاتحاد السوفييتى عن الجانب النووى — شن حرب نووية وكسبها، والبقاء بعدها، وبهذه الحرب يتسنى تدمير القوة العسكرية للغرب، وتحويل سكانه إلى عبودية فى خدمة الماركسية اللينينية، وهذا هو أخطر الأيام على سلام العالم، وعلى وجودنا الخاص».

ثم تأتى الفقرات عميقة المغزى فى هذا المقال، الذى أصدره التنظيم الصهيونى، وهو يكشف عن الرؤى المستقبلية التى تهيمن على امتداد الحلم الدهرى لإسرائيل الكبرى فى تصور الصهيونية السياسية، وقد جاء فيه:

«إن استعادة سيناء بمواردها الراهنة هدف ذو أولوية، تحول دون الوصول إليه حتى الآن اتفاقات كامب ديفيد، واتفاقات السلام... وبذلك حرمنا من البترول، ومن الموارد التى تصدر عنه، وتحملنا نفقات باهظة فى هذا المجال، ويجب علينا أن نعمل حتى نستعيد الوضع الذى كان فى سيناء قبل زيارة السادات، والاتفاق التعيس الموقع معه عام ١٩٧٩ م».

«إن الحالة الاقتصادية فى مصر، وطبيعة نظامها، وسياستها القومية العربية سوف تنفتح على موقف يفرض على إسرائيل أن تتدخل... ومصر بفعل صراعاتها الداخلية لم تعد تمثل بالنسبة إلينا أية مشكلة استراتيجية، ولسوف يكون من اليسير أن نردها إلى الوضع الذى عاشته عقب حرب يونيو عام ١٩٦٧م، فى أقل من أربع وعشرين ساعة.

لقد ماتت الأسطورة القائلة بأن مصر هى زعيمة العالم العربى... وقد فقدت فى مواجهتها لإسرائيل وبقية العالم العربى ٥٠٪ من قوتها، وربما استطاعت أن تفيد على المدى القصير من استعادة سيناء، ولكن ذلك لن يغير تغييراً عميقاً علاقة القوة، فمصر، من حيث هى جسد مركزى، قد صارت جثة، ولا سيما إذا ما أخذنا فى اعتبارنا المواجهة التى تتزايد عنفا بين المسلمين والنصارى فيها.

إن انقسامها إلى أقاليم جغرافية منفصلة يجب أن يكون هدفنا السياسى خلال التسعينيات على الجبهة الغربية، فإذا ما تصدعت مصر على هذا النحو، وحرمت من أية سلطة مركزية فإن بلادا أخرى، مثل ليبيا والسودان، وما هو أبعد منهما، سوف تواجه نفس الانقسام، فإنشاء دولة قبطية فى صعيد مصر، وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ذات أهمية ضعيفة هو مفتاح التطور التاريخى الذى أرجأه حاليا اتفاق السلام، ولكنه محتوم على المدى الطويل.

وعلى الرغم من الظواهر فإن الجبهة الغربية أقل مشكلات من الجبهة الشرقية، وإن تقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم يعطينا مقدما صورة عما ينبغى أن يحدث فى مجموع العالم العربى، فتفجير سورية والعراق إلى أقاليم محددة على أساس مقياس عرقى أو دينى يجب أن يكون على المدى الطويل هدفاً ذا أولوية بالنسبة إلى إسرائيل، والمرحلة الأولى هى تدمير القوة العسكرية لدى هذه الدول ثم إن البنية العرقية لسورية تعرضها لتفكيك قد ينتهى بها إلى إنشاء دولة شيعية على طول الشاطىء، ودولة سنية فى منطقة حلب، ودولة أخرى فى دمشق، ثم وحدة درزية يمكن أن تطمح إلى إنشاء دولتها الخاصة، ربما على أرضنا الجولان، وهى تتكامل فى كل حال مع حوران وشمالى الأردن.

إن دولة كهذه سوف تكون على المدى الطويل ضمانا للسلام وللأمن فى المنطقة، وهو هدف مقدر فى موضع اهتمامنا.» .

أما العراق ، الغنى بالبترول ، وبالصراعات الداخلية ، فهو على خط التسديد الإسرائيلى ، فتفكيكه بالنسبة إلينا أعظم أهمية من تفكيك سورية ، إذ هو يمثل على المدى القصير أخطر تهديد لإسرائيل ، ولذلك ، إن حرباً سورية - عراقية سوف تفيد فى تذويبه من الداخل ، قبل أن يكون بحيث يندفع فى صراع واسع ضدنا .

إن كل شكل من أشكال المواجهة بين العرب ، بعضهم وبعض هو مفيد لنا ، وهو تعجيل بساعة هذا التفجير ، ولقد تؤدى الحرب الحالية ضد إيران إلى التعجيل بهذه الظاهرة المعبرة عن الاستقطاب» .

«أما شبه الجزيرة العربية فهى مهيأة بأكملها لتحلل من هذا النوع ، بفعل الضغوط الخارجية ، وتلك هى بخاصةٍ حالُ المملكة العربية السعودية ، فإن تعاظم الصراعات الداخلية ، وسقوط النظام - هما جزء من منطق البنيات السياسية الراهنة» .

«والأردن هدف استراتيجى عاجل ، وهو على المدى الطويل لن يكون بوسعه أن يشكل تهديدا لنا بعد تحليله ، فنهاية مُلْك حسين ، ونقل السلطة إلى أيدى الأغلبية الفلسطينية ، هما ما ينبغى أن تتوجه إليه السياسة الإسرائيلية ، وهذا التغيير يعنى حل مشكلة الضفة الغربية ، ذات الكثافة السكانية العربية ، وإن تهجير هؤلاء العرب إلى الشرق فى ظرف سلام ، أو على إثر حرب ، وتجميد نموهم الاقتصادى والسكانى - هما ضمانتا التغيرات المقبلة ، ويجب أن نعمل كل ما فى وسعنا لتعجيل هذه العملية .

ويجب أن نرفض خطة الاستقلال الذاتى ، وأية خطة قد تستتبع تسوية أو اشتراكا فى الأراضى ، أو تضع عقبة فى طريق انفصال الأمتين ، وهى شروط لازمة لتعايش سلمى حقيقى .

إن على العرب الإسرائيليين (الذين هم أصلا فلسطينيون) أن يفهموا أنهم لن يكون لهم وطن إلا فى الأردن ... وأنهم لن يعرفوا الأمن إلا إذا اعترفوا بالسيادة اليهودية بين البحر والأردن .... فلم يعد ممكنا ، ونحن ندخل إلى العصر النووى ، أن نقبل تكديس ثلاثة أرباع الشعب اليهودى على شريط ساحلى مكتظ ، ومعرض للخطر طبعاً .

إن توزيع هؤلاء السكان أصبح أمرا لازما فى سياستنا الداخلية، فيهوذا، والسامرة، والجليل - هى الضمانات الوحيدة لبقائنا القوى، فإذا لم نصبح أغلبية فى المناطق الجبلية، فإننا نوشك أن نلقى مصير الصليبيين الذين فقدوا هذه البلاد».

«إن إعادة توزيع المنطقة على المستوى السكانى والاستراتيجى والاقتصادى يجب أن يكون مطمحنا الأساسى، وهذا يقتضى التحكم فى موارد المياه فى الإقليم، الذى يبدأ من بئر سبع إلى الجليل الأعلى، والذى هو اليوم خال من اليهود» .أ هـ.

إن هذا البروتوكول الذى يقرؤه العالم العربى هنا لأول مرة - ربما - قد نفذ بعض بنوده فعلا، ووضع بعضها الآخر على طريق التنفيذ فى إطار مشروع للسنوات الخمس أو العشر القادمة، وهو يكشف بصورة مأساوية عن أن رؤيتنا للقضية الفلسطينية تختلف عن رؤية العدو الصهيونى، اختلافا جذريا، وأننا نجهل القضية جهلا قبيحا بكل أبعادها، ولم يجد العدو حرجا فى أن يعلن بروتوكوله، فهو لا يخشى أن يتنبه النائمون أو المخدرون من العرب حوله، فسيان عنده نومهم ويقظتهم، وهم فى كهفهم يتقلبون !!.

أليست مأساة أن تواجه البلاد العربية المسلمة هذا الوضع الخطير على حاضرها وعلى مستقبلها، ثم لا تهتم أجهزة التربية فيها - من باب الحرص على الاستقلال التربوى، بتدريس عناصر هذه المشكلة، من وجهة النظر الإسلامية، والاستراتيجية؟... وذلك بعد أن ثبت أن طرح المشكلة من وجهة النظر القومية، أو الفلسطينية كان هو الفشل بعينه على مدى قرابة أربعين عاماً؟!..

وإذا كان من أوليات الصراع أن تعرف الأمة عدوها، فنحن أجهل قوم بعدوهم الرابض على صدورهم، فى حين أن العدو أدرى منا بما يدور فى دورنا !!

وإذا كان من بديهات الصراع معرفة جذوره فنحن أزهد الناس فى معرفة ما يتصل بقصته، ونحن نتعبرف تربويا، وكأننا نخشى على أبنائنا أن يعرفوا شيئا من هموم الماضى، التى تصنع من خاماتها مصائب المستقبل! أى: أن التربية غائبة !! .

وإذا كانت مقاومة هذا البلاء لا يمكن أن تكون إلا بسلاح الإسلام فإن بعض حكام المسلمين يخشون هذا الإسلام، ويرهبون عمق تأثيره فى الأجيال، فهم يحاربونه، ولو أدت محاربته إلى توحش العدو الصهيونى، وضياع مستقبل الأوطان.

إن هناك مقاومة شرسة من جانب العلمانيين فى الأوطان الإسلامية ضد العودة إلى نظام الإسلام، وتطبيق مبادئه العادلة، ولا سيما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وهذه المقاومة تتمثل فى الإصرار على تضليل الجماهير، وإبقائها ضمن دائرة الجهل والعجز، دون أى تفكير فى نقلها إلى مستوى من الوعى يبدو خطراً على العلمانية المتحكمة.

إن هذه العلمانية تعيش بلا غد تاريخى أو حضارى، فغدها هو السلطة اللذيذة، وما تتمتع به من ثروات منهوبة، وليكن الإفلاس قدر شعوبنا على أيدى العلمانيين.

من أجل هذا كان لابد من إلقاء ضوء فى هذه المقدمة على جذور مشكلة «**فلسطين: أرض الرسالات الإلهية**» - من الناحية الإسلامية، وقد لاحظنا أن الأستاذ جارودى لم يتطرق إلى هذا الجانب، لأن كل اهتمامه كان منصبا على الجوانب التاريخية، والسياسية، والعقائدية، والحضارية، وله فى هذا الصدد موقف متميز قطعاً.

القرآن ومستقبل إسرائيل

إن القرآن فى ثانى سوره (البقرة) يخص بنى إسرائيل باهتمام كبير جدا، حيث يقص قصصهم مع نبيهم موسى عليه السلام، ويبين كثيراً من أخلاقهم ومواقفهم العدوانية، ثم يقدم فى إيجاز موقفهم من الأنبياء بعامة، ولاسيما الثلاثة الكبار: موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام - على هذا النحو المعبر:

«ولقد آتينا **موسى** الكتاب، وقفينا من بعده **بالرسل** ، وآتينا **عيسى** بن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم، وفريقا تقتلون، وقالوا: قلوبنا غُلْفٌ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون، ولما جاءهم **كتاب** (القرآن) من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم **ما عرفوا** كفروا به، فلعنة الله على الكافرين»[البقرة ٨٧ - ٨٩].

فهذه صورة هؤلاء الكافرين من بنى إسرائيل: قتلوا الأنبياء بعد موسى، وكذبوهم، وكذبوا عيسى، حسداً واستكباراً، ثم لما جاءهم محمد مصدقا لما معهم كفروا به كذلك، فلعنة الله على الكافرين.

ذلكم هو موجز القصة التى نعيش حتى الآن فصولها الرهيبة، بوعى حينا، وبدون وعى أحيانا، وليس يهمنا أن نتتبع حديث القرآن عنهم، فحسبنا أنه يصفهم بأنهم: «أشد الناس عداوة للذين آمنوا» ولكنا نطالع فى آيات القرآن بعض خطوط المستقبل الذى يعنينا أن نقدم صورة له، من أجل مزيد من الوعى بالمشكلة:

إن الرؤية القرآنية لمستقبل هؤلاء المفسدين من بنى إسرائيل تتلخص فى بضع آيات من سورة المائدة، أولها قوله تعالى: «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم، فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين» [المائدة/١٣].

ومنها قوله تعالى: «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ويسعون فى الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين» [المائدة/٦٤].

وقوله تعالى: «وإذا تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم» [الأعراف/١٦٧]

والذى يعنينا فى هذه الرؤية القرآنية أن تتعلم الأجيال أن هذه القومية الصهيونية تتصف بصفات وخصائص مسجلة هى:

١ – الخيانة: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم).

٢ – ومن مظاهر الخيانة نقض العهد والميثاق مع الله ومع الناس.

٣ – ومن لوازمها قساوة القلوب، والجرأة على التحريف والتزوير.

٤ – وأنهم يبغضون من عداهم من الشعوب، نتيجة أنهم يعيشون على البغضاء فيما بينهم، والعداوة أبدا، وهى لا زمة لهم إلى يوم القيامة (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى). [الحشر / ١٤].

٥ – وأنهم يسعون فى الأرض فساداً، يقتلون الأبرياء، ويشعلون الحروب، إمعانا فى الإفساد، واستمراراً لغريزة العدوان المتأصلة فى طباعهم.

٦ – وأن الله أوعدهم بمن يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وهو مالا يمكن أن يتخلف، (وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الروم/ ٥].

وكل هذه – وغيرها – عناصر تقوم عليها بنية المستقبل المقدور لأبناء صهيون، وهى تجد مصداقيتها فيما ساقه المؤلف من وقائع تدمغ القادة الصهاينة بالخيانة، وبالمبادرة إلى العدوان، ونقض الوعود، وتحريف المعاهدات بما يوائم أهدافهم التوسعية، فليس كل هذا السلوك ببعيد عن إعلام القرآن فيما سبق، وإن تغافلنا عن العلاقة الوثيقة بينهما.

والتاريخ المعاصر يسجل على هؤلاء جرائمهم البشعة ضد شعب كان آمنا بريئا، هو الشعب الفلسطينى، فإذا بهم ينقضون عليه فى وداعته ومسالمته، يدمرون وجوده تدميراً شاملا، ولقد طوردوا وذبحوا وأحرقوا فى أوربا، على أيدى النصارى، والفاشيين، فلم يثأروا من ظالميهم، ولم ينتقموا من قاتليهم، بل أفرغوا شحنة حقدهم على الضعفاء الآمنين الذين وسعوهم فيما بينهم، كما وسعتهم الشعوب العربية كلها، فلم يضق بهم أحد، ولا عوملوا فى التاريخ الإسلامى إلا بروح الإسلام الحضارية.

وهكذا رد الصهاينة الإحسان بالإساءة، والجميل بالقبيح، والوفاء العربى بالغدر والخيانة اليهودية.

وقد جاء فى القران آيات، فى مستهل سورة الإسراء، تتعلق بمستقبل هؤلاء المفسدين، يعنينا كثيراً أن نتوقف عندها، وهى قوله تعالى:
«وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين، ولتعلنّ علوًّا كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا، ثم رددنا لكم الكرة عليهم، وأمددناكم بأموال وبنين، وجعلناكم أكثر نفيراً، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أساتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً، عسى ربكم أن يرحمكم، وإن عدتم عدنا، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً [الإسراء/٤ - ٨].

آيات من القرآن مضمونها العام أن بنى إسرائيل مفسدون بنص التوراة والإنجيل والقرآن، ولكن التدقيق فى عناصرها يقفنا أمام صورة محيرة، تكاد تصل إلى مرتبة المتشابه الذى لا يعلمه إلا الراسخون فى العلم، بما وهبهم الله من قدرة على التأويل:

والعناصر التى نعنيها فى الآيات هى:

١ - الكتاب، وبنو إسرائيل.
٢ - الإفساد.
٣ - الأرض.
٤ - المرّتان.
٥ - العلو الكبير.
٦ - المرة الأولى.
٧ - عباد الله ذوو البأس الكبير.
٨ - رد الكرة لبنى إسرائيل.
٩ - المرة الأخرى ووعدها.
١٠ - المسجد.

عشرة عناصر، لو استطعنا أن نحدد المراد منها على وجه اليقين لفهمنا ما يعنيه القرآن بهذا الإعلام العجيب، وإنما ستنشأ الحيرة من أن حديث القرآن هنا يتناول قضية غيبية تتعلق بما قضى الله على (بنى إسرائيل) فى (الكتاب)، ولا ريب أن المراد بهما هو ما جاء فى الآية الثانية من سورة الإسراء قبيل هذه الآيات: «وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا»، فالكتاب هو (التوراة)، التى نزل الله على موسى، و (بنو إسرائيل) هم قبائل الأسباط الاثنى عشر الذين تناسلوا بمصر عقب استقرارهم بها على عهد يوسف عليه السلام، إلى أن أخرجهم فرعون منها، ونجاتهم من بطشه على يد موسى عليه السلام.

والصيغة التى اختارها القرآن فى التعبير عن إفساد بنى إسرائيل المتوقع هى صيغة المستقبل المؤكد باللام والنون (لتفسدنّ)، بعد قوله (وقضينا)، فهو إذن إفساد واقع لا محالة.

ولا ريب أن المراد بالإفساد ما يشمل القتل والتخريب للعباد والبلاد، غير أن القرآن ربط (الإفساد) بـ (الأرض)، فهل المراد هو الأرض بعامة، أو هى الأرض الواردة فى قوله تعالى: «ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم» [المائدة / ٢١].

ونحن نميل إلى أنها هذه الأرض المقدسة، لارتباطها بوجود المسجد المذكور فى النص بعد ذلك، وعليه تكون أداة التعريف للعهد الذهنى، أى: الأرض التى تعرفونها وتسكنونها، ونفسدون فيها، كما أن (المسجد) هو المسجد الأقصى المذكور فى الآية الأولى:

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله».

والسؤال الآن هو: هل كان للمسجد الأقصى وجود قبل الإسلام بهذه التسمية، أو أن وجوده مقترن بظهور الإسلام..؟..

إن الإجابة عن هذا السؤال مرتبطة بتحديد المقصود بعبارة (بنى إسرائيل) ، ذلك أن الاستمرار العنصرى لبنى إسرائيل أكذوبة لم يعد لها وجود من الناحية الدموية والعرقية ، فقد ذاب هذا العنصر تماما منذ أجيال بعيدة ، ولم يَعُدْ له أثر فى كيان المنتمين الآن إلى إسرائيل مطلقا ، وهو ما يدعونا إلى أن نرى أن عبارة (بنى إسرائيل) صارت ذات مضمون دينى وسياسي يعيِّن كل من ينتمى إلى موكب الحقد الصهيونى ، حتى ولو كان زنجيا إفريقيا ، مثل الفلاشا ، أو أبيض أوربيا ، أو أصفر أسيوياً .

ونعود إلى تحقيق كلمة (مسجد) ، ومن المؤكد أن هذه الكلمة لم تستعمل فى العربية بهذه الصورة إلا فى القرآن ، حين ارتبطت العبادة بالسجود ، وقد كان المسجد الحرام يطلق عليه فى الجاهلية : (البيت الحرام) ، أو (الكعبة) أو (البنيّة) ، وكانت العبادة طوافا حول الكعبة لا سجود ولا ركوع ، لذلك لم يعرف استخدام كلمة (مسجد) فى تسمية دور العبادة قبل الإسلام ، لدى أهل الأديان الأخرى ، وإنما عرفت كلمات مثل : (بيعة ، وصومعة ، وصلاة) ، وقد ورد ذكرها فى الآية الكريمة من سورة الحج / ٤٠ : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات» ، وذكرت معها (مساجد) ، كما عرفت (مضيف) وذكرها القرطبى (١٠ / ٣٧٩) ، وشاعت كلمة (كنيسة) مؤنث (كنيس) ، بنفس المعنى تقريباً ، وفى الصحيحين عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال : «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة» — واللفظ لمسلم ، فهما تتحدثان عن (كنيسة) ، والرسول يجيبهما بتسميتها (مسجداً) ، كأنه ترجمة لتسمية بيت العبادة بمفهوم إسلامى ، وهو فى رأينا مسلك نبوى مقتبس من القرآن فى قوله فى قصة أصحاب الكهف : «قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً» [الكهف / ٢١] .

وقد كان استعمال لفظ (مسجد) فى البداية يقصد به مكان السجود، ثم اتسع استعماله فى البناء ليوازى المقصود بكلمة (كنيسة أو بيعة أو صومعة)، ومن هنا جاءت آية الحج بذكر: (صوامع وبيع وصلوات ومساجد)، وقد فرض القرآن هذا التوسع فى الدلالة، إذ لم يكن فى لسان الناس حتى حادثة الإسراء سوى: (البيت الحرام، أو البيت الأقصى، أو بيت المقدس)، وقد ورد فى بعض أحاديث الإسراء: مسجد البيت الحرام، ومسجد البيت الأقصى، ومعناه الواضح: مكان السجود فيهما، فقد ابتدأت رحلة الإسراء من نقطة السجود فى البيت الحرام، وابتدأت رحلة المعراج من نقطة السجود فى بيت المقدس، وجاء القرآن بعد ذلك بهذا التوسع فى دلالة (المسجد) على البناء بأكمله: «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين».

أما قبل الإسلام فعلى الرغم من أن العبادة كانت تشتمل فى الأديان المختلفة على الركوع والسجود، فإن كلمة (مسجد) لم تستعمل آنذاك، بل استعمل لفظ (بيت)، كما جاء فى القرآن خطابا لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى سورة البقرة: «طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» [البقرة/ ١٢٥]، وجاء فيه خطابا لمريم «يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» [آل عمران/ ٢٣].

إن هذا الوقوف أمام كلمة (مسجد) يقصد به فى هذه المقدمة التوصل إلى أن خطاب القرآن لبنى إسرائيل فى قوله: «فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيراً» يحتمل أحد أمرين:

فإذا كان (المسجد) المذكور هو المسجد الأقصى **بعد** أن سمى فى القرآن: مسجداً - فإن من المرجح أن يكون وجود إسرائيل المعاصر هو مرّة الإفساد الأخرى، وهو اتجاه فى التفسير يفرض أن لإسرائيل نهاية محتومة على أيدى المسلمين، كما جاءت بذلك الأحاديث، وكما هو نص القرآن فى قوله: «وإن عدتم عدنا» فستنتهى هذه المرة حتما، كما انتهت المرة الأولى بتدميرهم، مع وعد بنفس المصير كلما عادوا إلى الإفساد، وصدق الله:

«كلما أوقدوا نار للحرب أطفأها الله، ويسعون فى الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين»، [المائدة/ ٦٤]، «وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب» [الأعراف/ ١٦٧].

وعليه يستقر أمر العلاقة التى تربط بنى إسرائيل المعاصرين فيما بينهم على مفهوم القومية الدينية والحقد المشترك، حيث اختفى وذاب عنصر الدم والعرقية.

فهم بنو إسرائيل، نعم، ولكن بمفهوم التوجه المشترك إلى الإفساد فى الأرض المقدسة.

وأما إذا كان استخدام كلمة (مسجد) فى الآية ترجمة لما كان يطلق عليه: بيت العبادة الذى كان مقاما فى تلك المنطقة التاريخية، فإن من المرجح حينئذ أن تكون مَرَّتا الإفساد فى الأرض قد مضتا قبل الإسلام، إحداهما قضى عليها على عهد بختنصرّ، والأخرى قضى عليها تيتوس عام ٧٠ م، وكلتاهما مشهد من مشاهد الإفساد الكبير الذى ارتكبه بنو إسرائيل فى فلسطين، وعجل الله لهم فيه قضاءه، فدمرهم كما توعدهم.

وعليه ه أيضا - يكون اليهود الصهاينة المعاصرون كذابين أدعياء فيما زعموه من انتمائهم إلى إسرائيل، بناء على ما أكده علم الأجناس، والأنثروبولوجيا المعاصرة.

على أننا نميل إلى ترجيح الاحتمال الأول، الذى يتضمن الاحتمال الثانى وزيادة، بدلالة النص «وإن عدتم عدنا»، وذلك اعتماداً على الدرس اللغوى لكلمة (مسجد)، وعلى مدلول (العلو الكبير) المرادف للفساد الكبير، ولا يمكن أن يكون اليهود قد بلغوا فى أية فترة من فترات التاريخ ما بلغوا من العلو والإفساد فى عصرنا هذا، والقرآن يبشر بتدميرهم: «فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا». [الإسراء ٪ ١٠٤].

وهو أمر أدع القارىء ليتابع معالمه وتفصيلاته فى أجزاء هذا الكتاب، مع يقين أن هذا الإفساد لابد له من نهاية مهما بلغ، تسليحا، وحشدا، ونفوذا، وتحصنا بالقوتين العظميين، ولكن بشرط أن يعود المسلمون مسلمين، لينفذوا أمر الله بالقضاء على هذا الفساد السرطانى العالمى، وبذلك تتحقق اية الله ووعيده.

«الإيمان الإبراهيمى»

وهناك فكرة سوف يلاحظ القارىء أن المؤلف يركز عليها كثيراً، هى فكرة «الإيمان الإبراهيمى»، أو دين إبراهيم، ويعنى به الأصل الذى ترجع إليه الأديان السماوية القائمة فى عصرنا، وهى بترتيبها التاريخى: «اليهودية، ثم النصرانية، ثم الإسلام»، فهى كلها تنزع إلى أصل واحد هو الحنيفية، دين إبراهيم، أبى الأنبياء: موسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

ويرى الكاتب أن هذا الإيمان الإبراهيمى هو الصيغة التى يمكن أن تلتقى عندها مواكب المتدينين بالأديان الثلاثة لتحقيق الوفاق الإنسانى، وإقامة صرح الأخوة الإيمانية.

كما يرى أن للإيمان اليهودى رسالة عالمية هى ضد الروح الصهيونية القومية.

وهو ينعى على المسلمين أنهم لا يعرفون جوهر الروحية اليهودية، أو النصرانية، فهم يجهلون تماما محتوى الكتب المقدسة، لأنهم لا يقرءونها، ولا يدرسونها...

والواقع أن الإنسان المسلم تحكمه فى هذا المجال عدة اعتبارات:

أولها: أن فكرة (الإيمان الإبراهيمى) فكرة غامضة مبهمة، نظرا إلى أن دين إبراهيم: (الحنيفية) لم يكن سوى مجرد فكرة عن الوحدانية، لم تعقب شريعة ولا نظاما، وإنما هى ارتبطت بذلك النبى العظيم الذى جاب أنحاء الشرق، من العراق، إلى الشام، إلى مصر، إلى مكة، يحمل فى قلبه هذا الإيمان بالإله الواحد، ويحمل فى إهابه بذرة الأمة، التى جعلها الله فيه بالقوة: «إن إبراهيم كان أمة»، قبل أن تخرج إلى حيز الفعل، فى سلالة تملأ السهل والجبل الآن، من المحيط إلى الخليج.

وحاجة البشرية فى عصرنا إلى الإيمان ليست مجرد حاجة إلى فكرة بسيطة مجردة عن (الوحدانية)، بل هى حاجة إلى نظام ينبع من هذا الإيمان، وهو مالا تملكه الحنيفية، ولا اليهودية ولا النصرانية، وإنما يملكه الإسلام وحده باعتباره إيديولوجية شاملة مستوعبة لحاجات الإنسانية ومطامحها، منظمة لها فى كل زمان ومكان، وهذا هو السر فى أن الماركسية اجتاحت مواقع الديانتين فى أوربا، على حين لم يثبت أمامها سوى الإسلام.

وثانيها: أن مما يؤكد هذا الملحظ عن (الإيمان الإبراهيمى) ما ورد عن رسول الله ﷺ من أنه كان يتحنث قبيل مبعثه فى غار حراء على «دين إبراهيم»، ولو أننا تساءلنا عن جوهر هذا التحنث ومضمونه فلن نجد له فى وثائق العصر الجاهلى سوى هذه العبارة التى تسميه، دون أى تفصيل يدل على حقيقته، ولعلنا نقنع بكلمة (التأمل) تفسيرا له مجملا، وتذكاراً يشير إلى ذلك الحوار المتأمل الذى قصه القرآن حكاية عن نبى الله إبراهيم فى آيات من سورة الأنعام: «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل - رأى كوكبا قال: هذا ربى، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربى، فلما أفل قال: لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربى، هذا أكبر، فلما أفلت قال: يا قوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين» [الأنعام / ٧٥ - ٧٩].

فهذا هو مضمون التأمل، ولكن يبقى أن محمداً حين كان متأملا فى الغار لم يكن يعرف أيضا هذه الصورة عن تأمل إبراهيم، فالأمر - فى ظننا - كان مجرد اعتزال للخلق، وانتظار لجلاء الحق، فى صمت عميق، ولا شىء أكثر من هذا.

فهل دلكم هو مايُدْعَى المسلمون إلى الرجوع إليه تحقيقا للوحدة أو الوفاق بينهم وبين يهود عصرهم ونصاراه؟!.

وثالثها: أن للمسلم موقفا ثابتا من الكتب المقدسة التي يدعو إلى قراءتها الأستاذ جارودى، ذلك أن القران صرح فى أكثر من آية بأن هذه الكتب حرفت وزيفت، وخاض فيها الوضاعون والكذابون – هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قرر القرآن أنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، فكل حق فى هذه الكتب قرره القرآن وأقره، وما عدا ما قرره القران فهو باطل من القول وزور، فى اعتقاد المسلم.

فإلامَ يُدْعَى المسلم إذن ليعرفه من وجوه الحق فى هذه الكتب ؟!.

فإذا أضيف إلى ذلك ما أثبته النقد الحديث، مما ركز عليه الأستاذ جارودى وأكده فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب، وهو تطرق الاضطراب والاختلاق إلى نصوص الكتب المقدسة، ولا سيما فيما يتعلق بالأنبياء وبالعقائد، وما حفلت به من أساطير وخرافات، وأكاذيب وأغاليط، ومواكب دموية بشعة، تعتبر إسرائيل المعاصرة طبعة مكررة منها – كان لنا أن نتساءل عن ماهية تلك الروحية اليهودية التي يمكن المسلم أن يلتمسها من قراءة هذه الكتب، والتعرف إلى تلك الأسفار ؟، ونتساءل أيضا عن علاقة هذه الروحية بالإيمان الإبراهيمى المجرد، ولقد تجاوزته بألف مجزرة ومجزرة، عبر التاريخ، بدءا بيشوع وشاءول، وانتهاء بإسرائيل الصهيونية المعاصرة ؟؟.

أعتقد أنه من الخير للمسلم أن يقرأ الروحية اليهودية فى الواقع الإسرائيلى الذى خلقته الصهيونية السياسية، وحشدت فيه يهود العالم أجمع، فهذا الواقع هو التوراة والتلمود، والعهد القديم – الجديد لإسرائيل، وهو وثيقتها على المستوى الروحى اللعين الذى بلغته فى عصرنا.

ورابعها: أن الاشتغال بدراسة الكتب المقدسة قبل القرآن هو من قبيل الاهتمام بالثقافة المقارنة التاريخية والأثرية، وهو اهتمام برع فى تقديمه الاستاذ جارودى، كما عكف عليه عدد وافر من المتخصصين المسلمين الذين استخرجوا به الكثير من المادة لكتاباتهم النقدية، وإن شاب أعمالهم بعض الأحكام المتسرعة، والتعميم غير العلمى، ولكن ليس معقولا أن يُدْعَى المسلمون كافة إلى أن يضعوا هذه الكتب بين أيديهم ليلتمسوا شيئا من (روحيتها) على ما يراه الأستاذ جارودى، فى حين أن القرآن، كتابهم يغنيهم

عن ذلك كله، فهو النبع الفياض بالروحية الصافية، وهو المعبر عن إرادة الله سبحانه: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» [هود/ ٢].
فى حين أن ما أثبته المؤلف من تعرض الكتب السابقة للتحريف يطمس روحيتها، أو على الأقل يجعلها موضع شك فى نظر القارىء المحايد، ولا سيما إذا استوعب هذا الكتاب!!.

وخامسها: وهو لا يقل أهمية عن الملاحظات الأربع السابقة - أن الدعوة إلى الإيمان الإبراهيمى) ليست بالأمر الجديد على أسماعنا، بل هى فى الحق ترديد لنشيد قديم طالما غناه من قبل جارودى جماعات وأفراد، لم يكونوا للأسف موضع ثقة مطلقا من جانب المسلمين.

وقد أوردت بعض الدراسات الحديثة معلومات عن حركة التوفيق بين الإسلام والنصرانية، ومن ذلك ما جاء فى كتاب: (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ص ٣١٩ وما بعدها): فقد جاء فى مذكرات بلنت - (وهو محام عاش بمصر، ولد عام ١٨٤٠ م، وتوفى عام ١٩٢٢ م) - قوله على لسان الشيخ محمد عبده:

«فى أثناء نفيى فى دمشق سنة ١٨٨٣ كان أحد القسس فى انجلترا، واسمه إسحاق تيلور، يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة فى الإسلام، والموجودة عند الكنيسة الإنجليكية، وكان لى صديق فارسى «اسمه مرزا باقر»(١) يعتقد إمكان تحقيق هذه الفكرة».

ويروى الشيخ حمزة فتح الله أن أحد الفرنسيين زار مصر فى أوائل هذا القرن، وأخذ يفاوض أعلام الإسلام فى فكرة توحيد الأديان».

---

(١) مرزا باقر كان مسلما، ثم تنصر واحترف التبشير، ثم زعم أنه تاب وعاد إلى الإسلام، وأخذ يدعو إلى التأليف بين الإسلام والمسيحيه، (الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣١٩ - نقلا عن تاريخ الأستاذ الإمام - لمحمد رشيد رضا).

وقد طرحت مجلة الهلال، عدد مارس ١٩٣٩ فكرة توحيد الأديان فى استفتاء، وكان مما نشرته آراء للمفكر الفيلسوف محمد فريد وجدى، والقمص سرجيوس، والشيخ محمد عرفه، والقس إبراهيم سعيد...الخ.. وكلهم رفضوا الفكرة وأدانوها».

وقد نشطت هذه الدعوة فى بيروت عام ١٩٥٣م، ثم فى الإسكندرية عام ١٩٥٤م، على يد جماعة من الأمريكان ذوى الميول الصهيونية، حتى أصدر سماحة الحاج الشيخ أمين الحسينى، مفتى فلسطين السابق بيانا أكد فيه صلة القائمين على هذه الدعوة بالصهيونية العالمية.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلم يعرف من تعاليم البهائية الكافرة زعمها إمكان التوفيق بين جميع الأديان المختلفة على أساس جمع المعقول من كل الأديان!!.

كما يعرف المسلم أيضا أن للماسونية نوعا من النشاط فى هذا الاتجاه، بما يتفرع عنها من صور وأشكال الروتارى والليونز والتسلح الخلقى، وهذه كلها تنظيمات غربية تعمل فى خدمة الاستعمار والصهيونية بأسلوب ماكر خبيث.

ولنقرأ مثلا ذلك المنشور الذى وزع بالبريد العالمى بتوقيع (هانس فيشر بارنيكول) مدير معهد بحوث الثقافة الدولية، وقد وصلتنا نسخة من هذا المنشور، وجاء فيه ما نصه:

«لقد حاولت بدعم من أصدقاء عرب يغلبون الموضوعية عن العاطفة شرح المبادىء والتراتيب التى نتبعها وفقا للائحة المعهد، مؤكدا على أن رائدنا الوحيد فى سبيل إرساء أسس متينة للعمل المشترك والموضوعى هو توحيد كل الطاقات الجدية والكفاءة، وجمع شملها بغض النظر عن الديانة والجنس والمجتمع الذى ينتمون إليه».

ثم يقول: «تراني الآن منكبا على تدوين كتاب هو عبارة عن تأملات تاريخية دينية وفلسفية **حول المصير المشترك «لذرية إبراهيم الخارجة من الطاعة» وهى تأملات تحاول فهم التوراة والإنجيل والقرآن على أنها شواهد للوحى الإلهى»** أ. هـ؟!!!.

فأى وحى إلهى تشهد به هذه الكتب التى لا علاقة لها بالأصول الموحاة؟!.

وبرغم ما فى هذه العبارات من تعميم وسذاجة فإن مجرد المحاولة يعنى - عند التسليم بها - أن يضع المسلمون كتابهم الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» على قدم المساواة مع كتب هى من وضع القرون، وهى محشوة بالأساطير وبالأكاذيب على أنبياء الله ورسله، على ما يقرره النقد الحديث، وهو تنازل لا يملك المسلمون أن يقدموا عليه، كما أن من يدعو إليه يبرهن على التباس الأمور فى عينيه إن كان صادق النية، أو هو ملتاث العقل، ضال عن سواء السبيل إن كان غير ذلك.

والمستفيد على كل حال هو عالم الاستعماريين الغالبين، إذ يجدون أساطيرهم وقد ركبت دغاياتهم فخدرت المغلوبين من المسلمين، وهم أتعس أبناء إبراهيم.

إننا إذا أدركنا ذلك كله عرفنا أن الدعوة إلى «الإيمان الإبراهيمى» ليست جديدة،ولا هى من ابتداع الأستاذ جارودى، فهو لا يحملُ فيها وزرا.

وعرفنا أيضا أن تاريخها الذى يظهرها عبر العصور المختلفة فى هيئات وأشكال شتى يجعلها ضعيفة التأثير فى الوجدان المسلم، إن لم يضعها موضع الشك والارتياب لديه.

وما نظن أن الاستاذ جارودى حلقة من حلقات هذه الفكرة من الناحية التاريخية، فنحن نجلّه عن هذه المكانة، ونعتقد أنه انطلق إليها بحسن نية، وسلامة قصد، وهو موقن أنها لا يمكن أن تظفر بإجماع المسلمين، أو النصارى، أو اليهود، أو هم جميعاً.

وأقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الدعوة إلى الإيمان الإبراهيمى أنها توجد ما يشبه أن يكون موقفا رابعاً ، أو دينا رابعا يضاف إلى الأديان الثلاثة ، كما يضاف السِّبْطُ الثالث عشر من الصهاينة المعاصرين إلى الأسباط الاثنى عشر ، وما هو منهم ، دينا يعمد دعاته إلى تلفيقه ، ثم لا يبلغون به ما بلغ نبي بدعوته ، فلا نبى بعد محمد ﷺ ، وحينئذ لن يكون إلا من قبيل الوصف لأصحاب الكهف ، [أنظر الجملة الأولى من الآية ٢٢ من الكهف].

إن دين إبراهيم هو دين الإسلام ، أى : الخضوع لله رب العالمين ، وهذا المفهوم (العالمينى) للإسلام لم يعرفه اليهود ، الذين زعموا أن (يَهْوَه) أو الرب – إله خاص بهم ، إله قومي تقتصر رحمته على بنى إسرائيل دون غيرهم من الأميين .

وحين جاء عيسى بن مريم عليه السلام مرسلا ، ليهدى خراف بنى إسرائيل الضالة – كذبته الخراف ، ونطحته كثيرا ، ثم أقدمت على **محاولة صلبه** ، ونقول : محاولة صلبه ، ولا نؤمن – نحن المسلمين – بأنه صلب حقا ، بنص القرآن الذى يقرر :

«وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم» [النساء/١٥٧].

وإذا كانت عقيدة المسلم : (أن المسيح عيسى بن **مريم لم يصلب**) – فإنه يصطدم بعنف مع العقيدة النصرانية التى ترى : (أن المسيح عيسى بن **الله صلب**) – فكيف يجمعهما الإيمان الإبراهيمى ؟ .

لقد كانت الحركة النبوية التى انبثقت عن إبراهيم محصورة ، أو شبه محصورة فى ذريته من بنى إسرائيل حتى نهاية النصرانية ، إلى أن جاء محمد من بنى إسماعيل ، مرسلا بالهداية العامة (العالمينية) ، التى شملت كل الأجناس من بنى الإنسان ، فتجاوز القومية ، وأكد بشريته ، وأعلن انتصار العقل الإنسانى .

فالدعوة إلى الإيمان الإبراهيمى – إذا ما أخذت معناها المحمدى الحق – هى دعوة إلى الإسلام ، بكل معطياته ، وهو ما قرره القرآن فى قوله «إن أَوْلى الناس بإبراهيمَ لَلَّذين اتبعوه ، وهذا النبىُّ ، والذين آمنوا ، والله ولىُّ المؤمنين» [آل عمران/٦٨] وهى إذن أحرى أن توجه إلى معتنقي الديانَتَين الأُخْرَيَيْن لينضموا إلى موكب التوحيد الإسلامى الذى جاء به إبراهيم ، وتألق على يد

محمد ﷺ، دون أن تشوبه شائبة من تحريف، أو تزييف أو وضع، أو رواسب عقائدية.

ولعل هذا هو ما يؤمن به الأستاذ جارودى الذى يدعو إلى حوار الحضارات من منطلق إسلامى، وهنا أهدى إليه أغنية روحية للحاخام مائير كاهانا، زعيم حركة كاخ، وهى أغنية يؤيد مضمونها، ويقف وراء الحاخام فى إنشادها ٤٢٪ من الشبيبة الإسرائيلية، إن لم نقل ٩٩,٩٩٩٪ من الشعب الإسرائيلى.

قال الحاخام [فيما نشرته صحيفة أخبار الخليج عدد ١٩٨٦/٢/٢٦]:

إلى الكلب بن الكلبة الكبيرة
العربى الوسخ، راعى الكلاب
الكلاب الكبيرة، أبناء الكلاب
فى قرية الكلاب الكبيرة، أم الفحم
محمد هاشم [١]، الكلب الكبير
ابن الكلب الكبير
أيها العربى القذر، كيف حالك ياوسخ؟!
سنأتيكم عما قريب.
وسنذبحكم أطفالا ونساء وشيوخاً ورضعاً
من الطفل وحتى الشيخ، مرة واحدة
سنذبحكم، ونقطعكم إلى قطع من اللحم
مناسبة كطعام للحيوانات
فى حديقة الحيوانات التوراتية
فى المدينة المقدسة، أورشليم
العرب للدول العربية
واليهود لأرض صهيون
وإلى اللقاء قريبا، ودواؤكم من حركة كاخ

مائير كاهانا

---

(١) لاحظ اختيار الاسم الشريف فى هذا السياق لتوقن أن اللعنة قليلة عليهم، ومأواهم النار وبئس متوى الظالمين.

فى هذا الضوء يجب أن تقرأ الأجيال مستقبل العلاقات بين جناحى أبناء إبراهيم، فتتعرف على سماتٍ روحية عفنة، تنز بالقيح والصديد، وبالحقد الطافح ذى الجذور البعيدة فى التاريخ، والعميقة فى الأنفس، والضاربة فى الكلمات، والمعلنة فى الأهداف والمرامى، تحفظها أجيال الصهيونية، وتغنيها طوابير الأطفال فى مدارس إسرائيل.

وأخيراً، وليس آخراً، فهذه صورة قدمتها مقابلة للصورة التى حرص المؤلف على تقديمها للقارىء، أو هى فى الحق مكملة لها، وقد قلت فى مقدمة هذه المقدمة: إن الكتاب صرخة مدوية، وانفجار هائل، وهو فى الحق جدير بأن يوصف بما هو أعظم من ذلك تصويراً لقيمته، لو أطاقت الكلمات، فما أظن أن فلسطين ظفرت بمثل هذه الدراسة من قبل، ولا أعتقد أن أثر الكتاب فى نفس قارئه سوف يقل عن أثره فى نفس مترجمه..

لقد ذكرت بعد أن انتهيت من ترجمته خبراً قرأته عن صلاح الدين الأيوبى أنه ما كان يُرَى مبتسما قط، فلما سئل عن ذلك قال: إنى لأستحيى من الله أن يرانى مبتسما، وبيت المقدس فى أيدى أعدائه من الصليبيين...

ولقد حرر صلاح الدين القدس، وطهر البقاع كلها من رجس الغزاة، وأخشى ما تخشاه الصهيونية أن يبعث صلاح الدين من جديد... فهاهى ذه تغرقنا فى العبث والمجون واللامبالاة، وأوضاع المسلمين والعرب الراهنة تحمى الوجود الإسرائيلى فى فلسطين والقدس، وتؤمن استمراره بأفضل مما يؤمنه السلاح والجنود، بل والأسلحة النووية، فهم لا يقدرون إلا بعجزنا، ولا يأمنون إلا بتشرذمنا وتنازعنا، ونحن ضاحكون هازلون.

ولقد يصادف القارىء لهذا الكتاب الخطير مجموعة من التعبيرات ذات الأصل الدينى الغربى، من مثل «اشتراك الإنسان فى حياة الرب»، ومثل قوله نقداً للمسيحية، وهو نقد من منظور مسيحى

«إن تلاميذ يسوع يتنكرون له، أو على الأقل يبتعدون عنه، حتى يصمت فى قاع الموت فى أبشع صورة، صورة تعذيب العبيد الآبقين: الصلب».

وهى تعبيرات تختلف كثيرا عن منهج الإسلام ، وتتصادم مع مقرراته ، ولكنا آثرنا نقلها بأمانه حتى لا نزيف صورة المؤلف على نحو لا يرضاه ، وإن كنا نبادر إلى تقرير عدم التسليم بمضمونها ، ونؤمل أن يدرك الأستاذ جارودى صواب موقفنا .

فإذا تجاوز القارىء أمثال هذه الهنات فإنه ولا شك واجد فى الكتاب أخطر ما كتب فى هذا القرن ضد الصهيونية ، وقد كتب انتصاراً للمسلمين ، وللمقاومة الفلسطينية .

ولجارودى موقف فذ فى هذا الصدد ، فهو يحارب معاداة السامية من منطلق عداوته للصهيونية ، بعد أن فضح تحالفهما خطة وهدفا ، وإن كانتا متناقضتين متعاديتين فى ظاهر الأمر .

ولسوف يذهل القارىء وهو يشهد التحالف العجيب بين هتلر وإيخمان ، وبين الصهاينة ممثلين فى زعمائها الأحياء : بيجن وشامير وغيرهما ، رغم أنهم خدعوا العالم ، وصدعوا رأسه بأكاذيب الاضطهاد الهتلرى ، وهو فى الحقيقة تنفيذ لاتفاق جهنمى شيطانى بين أجهزة النازية وأجهزة الصهيونية السياسية .

ولسوف يستمتع القارىء كثيراً ، وهو يتابع فصول الكتاب النقدية ، ومعالجته لمؤامرة : (بروتوكولات حكماء صهيون) ، وكيف أنها فى الحقيقة ثمرة جريمة سرقة لأحد الكتب التى ألفت ضد نابليون الثالث ، ثم زيفت بإدخال بعض التعبيرات واستبدال بعض الرموز ، على يد المعادين للسامية ، خدمة للصهيونية ، وترويجا لإرهابها الفكرى .

ولسوف يذهل القارى أكثر وأكثر وهو يتابع وصف المجازر التى خططها الصهاينة لليهود ... نعم .. ذبح اليهود اليهود فى أوربا ، بوساطة هتلر ، بمنطق انتقائى داروينى ، ميكيا فيلى انتهازى ، بشع ، فى أفظع جريمة سجلها تاريخ الإنسان ، فعلوا ذلك ثم صرخوا ولطموا ومزقوا الأثواب ، ولطخوا وجوههم بالسواد والطين على ضحاياهم ... مطالبين بتعويضهم فى أرض فلسطين !! .

فيا لفلسطين ، من أرض قُتِلَ أهلوها بغياً وعدوانا ، وتعويضا عن جرائم ارتكبت بعيداً عنها بآلاف الأميال ... والضحايا والمجرمون هم عنها غرباء ... غرباء ... أو كما قال عمر حين طعنه المجوسى.قالها كلمة مع آخر أنفاسه : ياالله للمسلمين ..

القاهرة فى ٢٨ / ٣ / ١٩٨٦

عبد الصبور شاهين



مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

مطابع المختار الإسلامي